" قـــراءة نفسيـــة لمعلقـــة إمـــرؤ القيـــس "

www.arabpsynet.com/Documents/DocPsyReadingIKais.pdf

د. صـــــــادق السامرائـــــــي *

أمريكـــــــا – العـــــــراق

alrahwan@yahoo.com

هذه رحلة مقتضبة في معلقة إمرؤ القيس , أرجو أن أكون قد وفقت من خلالها بمساهمة متواضعة **لفهم آليات شخصيتنا التي تتسبب في تحقيق سلوكنا الفردي و الجماعي**

هذه تأملات نفسية في معلقة إمرؤ القيس التي مضى عليها خمسة عشر قرنا من الزمان. وقد صور فيها ملامح مهمة من شخصيتنا ودوافعنا السلوكية التي لازالت تتحرك في عالمنا المعاصر من حولنا. وقد عبر عن إبداع شعري وفكري متميز حينما ضغط الأفكار الأساسية لملحمة الفواجع العربية في صدر البيت الأول, ولقد جعل خماسية الوجع العربي مركزة وخلاصتها

قفا. . . . نبكي. . . . من ذكرى. . . . حبيب. . . . ومنزل

أولا: الوقوف

الإنسان في مجتمعنا يتوقف ليوم, لشهر, لعام, لعقد أو لقرن وربما لعدة قرون واجما جامدا مذهولا لا يحرك ساكنا ولا يأبه لواقعه. وإنما يعيش في عالم بعيد يتراأى أمامه بفنتازيا عالية, فيرضعه من خيالاته وتصوراته وكل طاقات تعويض عجزه وانكماشه وغيابيته عن عالم الحياة.

التوقف صفة واضحة وفاعلة في سلوك شخصيتنا. وهذا التوقف يدفع إلى الاجترار واستجلاب الأفكار السلبية, لأن الشخص في زمن التوقف يكون أهلا لها وأكبر مستثمر لمشاريعها. ويبتعد عن الأفكار الإيجابية وينكرها ويشوهها ويمنحها الكثير من مفردات التداعي واليأس. ويقسو عليها ويمعن في إيلامها وإلغائها من ذاكرته الحضارية ووعيه المعاصر. فيركن إلى كهوف العدمية والبؤس والحرمان.

ثانيا: البكاء

نحن نستلطف البكاء ونكره الفرح. وفي حالة توقفنا تتراكم عندنا كل أسباب البكاء والعويل والنواح والكثير من الممارسات البكائية المؤلمة , التي نتلذذ بها ونأنس لآلامها وتأثيراتها الموجعة في نفسنا ومحيطنا الذي نتوقف فيه كالأصنام.

ومن ينظر إلى حالة وجودنا اليومية في القرن العشرين, يكتشف عظيم بكائنا ونواحنا الذي شمل كل جوانب حياتنا. فأغانينا بكائيات وتوجعات. وسياساتنا تفاعلات تراجيدية مأساوية قاسية تزيد في توفير عوامل البكاء والنواح والتأسي واليأس. وكتاباتنا هي نتاجات لعالمنا الباكي الحزين وجرحنا الدفين , فما أكثر الكلمات الحزينة الباكية في مفردات تعاملاتنا اليومية وعلى شتى مستويات الحياة. إنها تفاعلات إستنقاعية راكدة لا تعرف الحركة , وتجيد ذرف الدموع واللطم على الخدود والصدور والرؤوس والإمعان في إيلام الذات والقسوة عليها , لكي تبقى تستلطف البكاء وتجده ممارسة لذيذة

لقد جعل خماسية الوجع العربي مركزة وخلاصتها قفا. . . . نبكي. . . . من ذكرى. . . . حبيب. . . . ومنزل

الإنسان في مجتمعنا يتوقف ليوم, لشهر, لعام, لعقد أو لقرن وربما لعدة قرون واجما جامدا مذهولا لا يحرك ساكنا ولا يأبه لواقعه. وإنما يعيش في عالم بعيد يتراأى أمامه بفنتازيا عالية

التوقف صفة واضحة وفاعلة في سلوك شخصيتنا. وهذا التوقف يدفع إلى الاجترار واستجلاب الأفكار السلبية

نحن نستلطف البكاء ونكره الفرح. وفي حالة

تعبّر فيها عن أوجاعها وضعفها الروحي والفكري والإنساني وحتى الأخلاقي.

ثالثا: الذكرى

التوقف والبكاء والتذكر تشكل ثلاثية مفزعة متفاعلة في أعماق شخصيتنا , فالبكاء لا بد له أن يكون مقرونا بذكرى قاسية وبوجع أليم يتسبب في ديمومته. والوقوف عند الأطلال, إن كانت شواهدا قائمة أم أحداثا حاصلة , يكون مشحونا بقوة عاطفية هائلة وارتباط عضوي يصعب على العقل أن يفسره, لأنه انتماء موجع وفجائعي الدرجة. إن الالتصاق بالذكرى يعوق كل إمكانية للحوار أو النقاش أو التفنيد.

نحن نلتصق بالصورة التي تخلقت في ذاكرتنا , ونمنحها ما لايمت بصلة إليها من الصفات والمعاني والمفردات , التي نجيد إبداعها ولصقها بالشيء المخزون في ذاكرتنا, فتتحول الذكرى إلى وقفة مأساوية وفاجعة عظمى تستحق إلغاء حياتنا وتوقفنا عن الحركة وممارسة الحياة وبكائنا وإيلامنا لأنفسنا بإمعان وقسوة , لكي نستخرج أقياح الذكرى من كل خلية في جسدنا الساكن الكسول. ووفقا لهذا فإننا نلغي أي نشاط فكري وإبداعي يرتبط بالحاضر ونركزه على نقطة الذكرى ,وموقعها وما دار ويدور لتلميعها وتحويلها إلى نشاط يومي وفعل درامي يؤسس لمسيرة حياتنا الجامدة المرتعشة حد الموت. وهكذا ترانا نتخندق في الماضي ونمعن في حفر خنادق انكماشنا فيه, ونتأمله بعيون دامعة وأدمغة ساخنة بالعواطف والانفعالات التي لا تترك منفذا للتعقل والإدراك الواعي الصحيح.

وبهذا نكون قد استثمرنا الذكريات وتمادينا في تطويرها لتكون حاضرة حية في عالمنا المعاصر. ومضينا وكأننا لا نعرف الحاضر, فهو غريب عنا وما علينا إلا أن نغوص في سباتنا الحضاري وتذكرنا لما فات , ولا شيئ نستطيع فعله إلا إبداع البكائيات وجلد النفس والروح وإلغاء أية قدرة للعقل على القول والفعل , وهنا تكمن مصيبة أجيال الأمة في القرن العشرين, وأراها ستتواصل في القرن الحادي والعشرين ويا ويلاه.

رابعا: الارتباط العاطفي

نحن نرتبط عاطفيا بما نتذكر والحبيب هو الرمز لذلك الانتماء العاطفي الجياش بما نتذكره ونحن إليه ونملي عليه من صفات. وفي أغلب الأحيان يتحول المتذكَر في أعماق لا وعينا إلى إله , لأننا نصبغ عليه الكثير من المميزات اللابشرية, ونخرجه من إطار الواقع وندفع به إلى عالم كوني وإلهي بعيد المنال. فمثلما تتحول الأصنام إلى آلهة, كذلك ما نتذكره يكون إلها في أعماقنا اللاواعية ويؤثر على سلوكنا وفعلنا اليومي وتفاعلاتنا مع بعضنا. فلكل منا إله في أعماق وعيه قد صنعه من أمهات خيالاته وتصوراته بإضفائه ما لا يمكن أن يتصوره بشرٌ على ذلك "المتذكَر".

أي أن الذكرى في أعماق لا وعينا تتحول إلى طاقة فائقة ذات إمدادات كونية تستحق منا كل الألم والإذعان والانتماء المطلق إليها , والانقياد إلى ما نتصوره عنها من الصفات الإلهية الشمولية المطلقة. فالذكرى في أعماقنا ليست ذكرى واقعية, وإنما هي ذكرى وهمية ومتخيلة, لها أساس لكنها قد تشوهت وتطورت وتنامت حتى غدت شيئا لا أساس له في وعينا الانفعالي الجياش الذي لا يعرف

توقفنا تتراكم عندنا كل أسباب البكاء والعويل والنواح والكثير من الممارسات البكائية المؤلمة

ما أكثر الكلمات الحزينة الباكية في مفردات تعاملاتنا اليومية وعلى شتى مستويات الحياة.

إنها تفاعلات إستنقاعية راكدة لا تعرف الحركة ، وتجيد ذرف الدموع واللطم على الخدود والصدور والرؤوس والإمعان في إيلام الذات والقسوة عليها

لتوقف والبكاء والتذكر تشكل ثلاثية مفزعة متفاعلة في أعماق شخصيتنا

إن الالتصاق بالذكرى يعوق كل إمكانية للحوار أو النقاش أو التفنيد

تتحول الذكرى إلى وقفة مأساوية وفاجعة عظمى تستحق إلغاء حياتنا وتوقفنا عن الحركة وممارسة الحياة وبكائنا وإيلامنا لأنفسنا بإمعان وقسوة ، لكي نستخرج أقياح الذكرى من كل خلية في جسدنا الساكن

للعقل مكانا وصوتا. ولا يمكنك أن تمس هذه الذكرى المقدسة وهذا الإله الكامن في الأعماق.
فنحن لا نتذكر مثل باقي البشر وإنما ننفعل ونتفاعل مع ما نتذكره ونضفي على "المتذكَر" الكثير من الصفات البعيدة عنه , ونسعى إلى تأليه الذكرى والانتماء العاطفي إليها بقوة وشدة لا يصدقان. ووفقا لهذا التفاعل العاطفي المنفعل مع ما نتذكره يكون الماضي عندنا حالة مقدسة. فالأب بعد وفاته يكون مقدسا والشيء بعد فقده يكون عزيزا ومعبرا عن كل حياتنا ومحورا لها فلا قيمة لشيء عندنا ما دمنا قد فقدنا ذلك الشيء.
أي أننا نحقن المفقود والضائع والماضي بالعاطفة والمثالية والألوهية وتكون طاقاتنا للبحث عن المفقود والمتذكر قد تفوقت على طاقاتنا في لسعي للبناء والتطور في الحياة. أي أن لدينا عزم وإرادة شد إلى الوراء أقوى من عزمنا وإرادتنا في التحرك إلى أمام. وهذا مبعث الاستنقاع الحضاري والتخندق في ذات المكان والزمان وعدم القدرة على الحياة في عصر مشحون بالتطورات والإبداعات الفكرية على كافة المستويات.

خامسا: المكان

بعد التوقف والذكرى والبكاء والانفعال المرتبط بهما يأتي المكان, ليكون موضعا جامعا لتلك المميزات الأربعة. فالمكان الذي تتحقق فيه الذكرى ويرتبط به الشيء المتذكَر, لا بد له أن يكون مقدسا ومنزها ومؤلها لكي يبرر التفاعل معه بالأسلوب الفجائعي المؤلم الذي يسترخص الأرواح. فالمكان يكون أكثر قدسية من البشر الذي يتفاعل معه بسبب ما امتلكه من المعاني والقدسية والتبجيل. فالطلل المكاني هو ليس طللا في منظور من يتذكر, وإنما هو حالة أخرى. إنه حافز ليقظة ما في أعماقه اللاواعية من تصورات وتخيلات عن ذلك الحبيب وكيف كان يسعى في المكان المتصور, وكيف كان يقول وما هو شكله وكل حركاته التي تتحول إلى ملحمة رومانتيكية يستحيل استخراجها من أعماق الخيال, بل يتم البناء عليها وفقا لطاقات العقل الجمعي المتفاعل مع ذلك المكان أو الطلل الذي يقف أمامه هذا البشر. الطلل يتحول إلى عالم مقدس مليء بمعاني المطلق والابتعاد عن حالة الواقع المعاش. هذا الوجود السرابي للأشياء هو الذي يجعل العربي يتصور السراب ماءا في الصحراء الكالحة فيسقي ظمأ لاوعيه ويحقق إستمراريته. أي أن الخداعات الفكرية من المؤثرات اللازمة لتحقيق الاستمرارية والحياة وتأكيد الإحساس بهما.
وبدون هذه الخداعات يكون الواقع القائم جحيما ومعركة من الصراعات والتفاعلات الدامية التي لا تبقي شيئا صالحا للحياة من حوله. إن إلغاء المكان بمفرداته الواقعية الملموسة وإضفاء القدسية عليه وتحقيق قدر عالي من الانتماء العاطفي القوي نحوه, يجعل الفرد البشري لا يرى ذلك المكان أبدا ولا يبصره إطلاقا. وإنما كل الذي يكون شاخصا أمامه هو ما هو قائم فعلا في دنيا أعماقه اللاواعية, وأنه يُفرغ ما فيه على المكان ويتوهم بأنه قد تلمس ما فيه.
فهكذا هو التقى بالمكان الذي ارتبط به عاطفيا وعاش حالة التذكر المشوهة المقدسة المؤلهة وذرف دمعا على أضرحة تصوراته وخيالاته , وحقق إرضاءا لحاجاته العاطفية المسكونة بهاجس المكان أيا كان معناه وموضعه وشأنه.
ومن هنا فأن امرؤ القيس قد جمع خماسية الدمار العربي في صدر بيته العتيد الذي افتتح به معلقته

الكسول

إننا نلغي أي نشاط فكري وإبداعي يرتبط بالحاضر ونركزه على نقطة الذكرى ،وموقعها وما دار ويدور لتلميعها وتحويلها إلى نشاط يومي وفعل درامي يؤسس لمسيرة حياتنا الجامدة المرتعشة حد الموت

ترانا نتخندق في الماضي ونمعن في حفر خنادق انكماشنا فيه، ونتأمله بعيون دامعة وأدمغة ساخنة بالعواطف والانفعالات التي لا تترك منفذا للتعقل والإدراك الواعي الصحيح

لا شيئ نستطيع فعله إلا إبداع البكائيات وجلد النفس والروح وإلغاء أية قدرة للعقل على القول والفعل ، وهنا تكمن مصيبة أجيال الأمة في القرن العشرين، وأراها ستتواصل في القرن الحادي والعشرين ويا ويلاه

مثلما تتحول الأصنام إلى آلهة، كذلك ما نتذكره يكون إلها في أعماقنا

الرائعة الخالدة, وهو يلخص الأسباب الجوهرية لمعاناة أمة على مدى العصور!!

إن ديناميكية التفاعل ما بين هذه المرتكزات تؤسس لسلوكياتنا التي نحصد نتائجها في كل عصر وجيل. فالأجيال التي تحاول أن تعبّر عن نفسها في مسيرة الحياة تسقط في قيد خماسية الفواجع المدمرة والتي تحولها إلى وجود مشلول وطاقات متوقفة موؤدة إلى الأبد. إن أي جيل يريد أن يقدم شيئا ويتحرر من القيود الثقيلة ويتعامل مع الواقع القائم يسقط في وادي "قفا نبكي" فلا يقدم شيئا نوعيا كالجيل الذي سبقه.

ويمكننا التعمق والإمعان الفكري والبحثي في هذه الآليات الخمسة لشخصيتنا وتفسير الكثير من سلوكياتنا النهضوية والتقدمية من خلال منظارها الشمولي الثابت.

الآليات السلوكية

أولا- تذكر المتصور من الذكرى

هذه الذكرى تتميز بالوضوح الصارخ في ذهنيتنا "...لم يعف رسمها" إضافة إلى ما نمليه من وحي خيالنا وتصورنا على الذكرى المستنهضة من أعماق الزمن الفائت. وبهذا تتحول الأشياء إلى غير طبيعتها مدججة بقوة الخيال والتصور والخداعية

"ترى بَعر الأرام في عرصاتها وقيعانها كأنه حب فلفل"

فيتحول بعر الأرام إلى حب فلفل. وهذا تطرف في التصوير والتخيل والانطلاق إلى رحاب بعيدة تماما عن الواقع المعاش.

"كأني غداة البين"

يقول معبرا عن قدرة عيش لحظة الذكرى ووعي الحدث الذي يتذكره وفقا لما يراه ويتصوره.

وبسبب هذا التذكر الحي الناشط الفعال يوشك من الحزن أن يهلك ولا يتلطف على نفسه, بل يقسو عليها بأشد ما يمكنه من القسوة والجلد.

إن الشفاء من هذه الذكرى المتفجرة المشحونة بالعواطف والتصورات والخيالات والفنتازيا يكاد يكون مستحيلا برغم وعي العقل والمنطق لعدم مصداقية الفعل والتفاعل معه.

"وإن شفائي عبرة مهراقة .."

ومع ذلك فهو يعاتب نفسه ويناقض عقله الذي يقول

" فهل عند رسم دارس من معول"

أي أنه يقر بوجود العقل ورأيه وسببيته وتعليله لكنه لا يتبع إقرار العقل وإنما مراد العاطفة والتوهم والتصور المبني على ما يجيش في نفسه من رغبات مكبوتة.

ثانيا- الهروب من الواقع

وهذا نتاج الواقع الغير ممكن تغيره , الواقع "التابو" , فلم يفكر الشخص بتغيير واقعه وكان يهرب منه إلى الخيال البعيد. إن روح التغيير تكاد تكون مرفوضة ومن بنات المستحيلات. فالواقع الأرضي لا يمكن تغييره بالجد والاجتهاد وإنما السماء هي التي تغيره , إن أمطرت أو أنكرت على

اللاواعية ويؤثر على سلوكنا وفعلنا اليومي وتفاعلاتنا مع بعضنا

الذكرى في أعماقنا ليست ذكرى واقعية، وإنما هي ذكرى وهمية ومتخيلة، لها أساس لكنها قد تشوهت وتطورت وتنامت حتى غدت شيئا لا أساس له في وعينا الانفعالي الجياش الذي لا يعرف للعقل مكانا وصوتا

نحن لا نتذكر مثل باقي البشر وإنما نتفعل ونتفاعل مع ما نتذكره ونضفي على "المتذكَر" الكثير من الصفات البعيدة عنه ، ونسعى إلى تأليه الذكرى والانتماء العاطفي إليها بقوة وشدة لا يصدقان

أن لدينا عزم وإرادة شد إلى الوراء أقوى من عزمنا وإرادتنا في التحرك إلى أمام. وهذا مبعث الاستنقاع الحضاري والتخندق في ذات المكان والزمان وعدم القدرة على الحياة في عصر مشحون بالتطورات والإبداعات الفكرية على كافة المستويات

الواقع شيئا من الماء. فما كان الواقع مرهون بإرادة الشخص ولكنه مرهون بقوة المطر. ولهذا لجأ الشخص إلى الأصنام وإلى الآلهة لكي يتوهم من خلالها بأنه سيفعل شيئا في واقعه. وتحولت قوة الآلهة إلى تعبيرات خيالية بعيدة عن الواقع المعاش. أي أنها اكتسبت القدرة على إخراج الشخص من أزمة واقعه إلى حرية الخيال والتحليق الرومانتيقي في فضاءات اليقظة الحالمة.

ثالثا- الركض وراء السراب والخوف من تحقيق الهدف

"كدأبك أم الحويرث قبلها وجارتها أم الرباب بمأسل"

هنا تتكشف آلية في التفكير تشير إلى اللجوء إلى ما لا يمكن تحقيقه والحصول عليه والابتعاد عن الذي يمكن تحقيقه. ومن هنا فأنه لا يريد فعل شيئ بل يوهم الآخرين بأنه قادر على أن يفعل لكنه لا يحقق ما يريد بسبب هذه وهذا من العثرات والموانع والمؤامرات وغيرها من المعوقات. فيخرج من مفردات الممكن إلى مفردات المستحيل. فيبدأ بوصف الحالة على أنها شيئ لا يمكن للبشر أن يكون عليه. وهذا المراد الصعب الذي يحلم بتحقيقه سيدفعه إلى البكاء الشديد والندب. لأن ما يجيده في حقيقة الأمر, هو البكاء على الأطلال والندب وقد أقر في بداية المعلقة بذلك.

رابعا- الجنوح إلى الغرائبية

"ويوم عقرت للعذارى مطيتي"

تتكشف هنا إندفاعات العقل نحو الغرائبية والتعبير عن سلوكيات غير مألوفة لكي تمنح القائم بها خصوصية وتفردا لا يساويه فيه أحد. ومن بعدها تطل علينا روح المغامرة في الشخصية وآليات تبرير المغامرة وتلوينها بقوة الخيال وكأن الشخص ينتصر على واقعه بتجاهله والعيش في واقع لا يرتبط به تماما. أي أن الانقطاع عن الواقع القائم هو السمة البارزة في تحديد معالم الشخصية في هذا القول.

خامسا- إستلطاف دور الضحية

أ فاطم مهلا بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي"

وفيما بعده من أبيات , يتحقق إقرار باستلطاف دور الضحية في الشخصية , فهو بعد المغامرة وتلوينها بكل تلك الصور الخيالية أو السرابية , تلذذ بدور الضحية وكأنه كان يطمح من مغامرته أن يكون ضحية. ويأخذ بتسويغ هذا الدور وإيجاد المبررات التي يقنع بها نفسه. وهذه الضحية تبحث عن اللذة , أي أنها تقرن الألم باللذة وهي تمضي إلى دور الضحية بمحض إختيارها وإصرارها وتعاني فيه , لكنها تتلذذ باضطهاد جلادها لها أيضا , وهنا تبرز الجوانب الماسوشيستية في الشخصية, فهذا الإيلام الذاتي من أجل اللذة يصل إلى حد مواجهة الموت, ليس لكي يموت بل لكي يضع نفسه في أشد حالات الخطر , التي ستأتي بمردود إيجابي على مقدار اللذة التي سيحققها في لقائه مع مَن يريد أو تحقيق هدف ما.

أي أن تحقيق الهدف هنا يكون مقرونا بالألم والعناء والشقاء الإمتهان, حتى ليفقد الهدف قيمته بعد أن يتم الوصول إليه وتبرد نيران الاندفاع نحوه, ويتحول إلى عالم الكآبة والانكسار والتوجع والبكاء من

الطلل المكاني هو ليس طللا في منظور من يتذكر، وإنما هو حالة أخرى. إنه حافز ليقظة ما في أعماقه اللاواعية من تصورات وتخيلات عن ذلك الحبيب وكيف كان يسعى في المكان المتصور، وكيف كان يقول وما هو شكله وكل حركاته التي تتحول إلى ملحمة رومانتيكية يستحيل استخراجها من أعماق الخيال

إن إلغاء المكان بمفرداته الواقعية الملموسة وإضفاء القدسية عليه وتحقيق قدر عالي من الانتماء العاطفي القوي نحوه، يجعل الفرد البشري لا يرى ذلك المكان أبدا ولا يبصره إطلاقا. وإنما كل الذي يكون شاخصا أمامه هو ما هو قائم فعلا في دنيا أعماقه اللاواعية، وأنه يُفرغ ما فيه على المكان ويتوهم بأنه قد تلمس ما فيه

لهذا لجأ الشخص إلى الأصنام وإلى الآلهة لكي يتوهم من خلالها بأنه سيفعل شيئا في واقعه. وتحولت قوة الآلهة إلى تعبيرات خيالية بعيدة عن

جديد , وكأنه يدور في حلقة مفرغة من الأوجاع المستحيلة الانقشاع.

وبعدها تبدأ تباريح الخيال والتحليق في سرابيات التصورات ونزع الأوصاف على الهدف , ويتم تحقيق الرغبة في الحلم اليقظوي وليس في الواقع المرير القائم من حولنا. أي أن حلم اليقظة قوي ومؤثر في التفكير وأحد المكونات الأساسية لإرضاء الرغبات اللاشعورية والحاجات النفسية المدوية في العمق البشري.

سادسا–الانقلاب على الهدف ومعاداته

وهكذا يتحول الهدف إلى خصم لأنه قد أغدق عليه كل هذه الخيالات فأوجعه بالخيبات وحوله إلى حالة بائسة متألمة في بحر الحسرات. إنه لا يريد أن يرى ما يريد عندما يفتح عينيه بل حينما يغمضهما.

وهذا اليأس والقهر والشلل يتأكد عندما ينتقل إلى وصف حالة الليل التي ما عاد قادرا على احتمالها , وصار إحساسه بالزمن مشوها لشدة الرغبة وكثرة موانعها وصاداتها.

وليل كموج البحر أرخى سدوله علي بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصبحه وأردف إعجازا وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح وما الاصباح منك بأمثل
فيا لك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بيذبل
كأن الثريا علقت في مصامها بأمراس كتان إلى صم جندل

وفي هذه الأبيات تتجلى بوضوح محنة الشخصية , إنها صنعت موقفا وركنت إليه بسبب مغامرتها وعدم تدبرها وإهمالها لعقلها , رغم وعيها لقيمته وسماعها لصوته لكنها لا ترعوي , فاستهانت بالعقل واندفعت نحو الوهم بكل تداعياته , ونحو الفنتازيا بكل أشكالها حتى وصلت إلى حوض المحنة والعناء. وهذا وصف دقيق لذروة التراجيديا في شخصيتنا فردية أم جماعية. فهذا الوصف ينطبق على حياتنا في الزمن المعاصر وعلى مدى القرن العشرين ووربما سنمضي هكذا في القرن الحادي والعشرين.

سابعا–الشعور بالذنب والنرجسية

بعد هذا العناء والمحنة التي لا يمكن الخروج منها من غير تضحية وألم , وبرغم ما تكلفه من أوجاع أراد خروجا أو فكر بمخرج من عظيم مأساته وخزين أساه , فوجد نفسه موحشا في واد تعوي فيه الذئاب ويأخذ بمقارنة نفسه بها, وكأنه يلوم نفسه على ما فعله وحرثه وأنجزه لأنه لم يورثه إلا الشقاء والهزال.

كلانا إذا ما نال شيئا أفاته ومن يحترث حرثي وحرثك يهزل

الذئب هنا رمز القوة والهجومية , فهو لا يتنازل عن كبريائه وسيادته وأنفته برغم ما ألّم به من وعثاء العناء والقهر, وكأنه يدخل في عالم آخر من السرابية والوهم ليبدأ بمدح نفسه وتجاوز واقعه الذي عاشه وتكلف منه ما تكلف. إنه يرغب بوصف نفسه بما ليس فيها ويطرب للمديح ويعشقه عشقا مريضا حد الموت , وهذا جزء من فقدان الشعور بدور الفرد في الحياة وقيمة ما يقوم به ,

الواقع المعاش. أي أنها اكتسبت القدرة على إخراج الشخص من أزمة واقعه إلى حرية الخيال والتحليق الرومانتيقي في فضاءات اليقظة الحالمة

تتكشف آلية في التفكير تشير إلى اللجوء إلى ما لا يمكن تحقيقه والحصول عليه والابتعاد عن الذي يمكن تحقيقه. ومن هنا فأنه لا يريد فعل شيئ بل يوهم الآخرين بأنه قادر على أن يفعل لكنه لا يحقق ما يريد بسبب هذه وهذا من العثرات والموانع والمؤامرات وغيرها من المعوقات

كأن الشخص ينتصر على واقعه بتجاهله والعيش في واقع لا يرتبط به تماما

أن حلم اليقظة قوي ومؤثر في التفكير وأحد المكونات الأساسية لإرضاء الرغبات اللاشعورية والحاجات النفسية المدوية في العمق البشري

إن أبيات المعلقة تكشف لنا عن آليات فعالة في تفكيرنا ، مفادها أن

فيتحول إلى فرد فاقد الشعور بالقيمة ويريد من الآخرين أن يسقونه كؤوس الإطراء والمديح لكي تتأكد فرديته وتتحقق نرجسيته وقوته. هكذا يعود شاعرنا إلى نفسه مداحا لها ومعبرا عن عطشه لهذه الحاجة العربية الغريبة.

وقد أغتدي والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

ثامنا–الندب والتفتت أمام صخرة الواقع

وتنتقل الشخصية إلى وصف عدتها وهو الحصان أو الفرس وراحت تتعامل مع الواقع الذي تعيشه , وهي تلونه ببعض الخيال المرتبط به , وكأن الشخصية عادت إلى الأرض بعد أن طفح بها الخيال وتغربت عن كيانها , وتمادت في طيشها وعنائها لتعود إلى واقع واضح, فيه حصان يُسرج وصيد يطارد وحاجات بشرية يومية لا بد من إرضائها بعيدا عن أوهام الخيال وتجليات السراب. عاد إلى الواقع الذي جزعه وحاول التخلص منه بالخيال والكثير من حلم اليقظة والشرود. هذا الواقع هو عبارة عن صراع عنيف بين الأرض القاحلة ومطاردة الصيد وأكل لحمه , والعناية بالفرس والتعامل معها كل يوم , وهذه حياة صعبة ومكلفة ولا يمكنه أن يشفى منها إلا بالخيال , وما فكر يوما بالتفاعل الخلاق من أجل تغييرها وتحويلها إلى وجود آخر مفيد للمجتمع الذي هو فيه.

الخاتمة

إن أبيات المعلقة تكشف لنا عن آليات فعالة في تفكيرنا , مفادها أن الفرد منا لا يواجه واقعه ولا يبتكر الوسائل الكفيلة بتغييره , وإنما ينأى عنه ويخرج منه إلى آليات الخيال والحلم , فلا يخطر على باله بأنه قادر على مواجهة وتغيير الواقع الذي هو فيه. ومن هنا تجده يتجاوز واقعه ويجنح إلى الخيال البعيد وكأنه مصاب بحالة شلل تام أمامه , وإنه مقعد ويريد من الآخر ومن القدر أن يغير الواقع الذي هو فيه , وهذا يحقق الإتكالية والقدرية والإنجماد.

إن وعي ملامح شخصيتنا وفهم الآليات التي تدفعنا للتفاعل مع بعضنا وواقعنا والآخر من حولنا , يساهم في رسم طريقنا في الزمن المعاصر

وعندما جاء محمد(ص) برسالته وواجه الواقع القائم وأقر مؤمنا بتغييره, لاقى صعوبات جمة أخذت منه أكثر من ثلاثة عشر سنة , لكي يحول أنظارنا من الخيال وتجاهل المحيط الذي نحن فيه إلى الوقوف إزاءه ونقده ومراجعته وتغييره.

إن هذا الميل في الشخصية نحو تجاوز مفردات الواقع والسعي إلى نسيانها وركنها في معزل عن فعل الإرادة والعقل, لا زال فاعلا في حياتنا اليومية المعاصرة. فالموقف الإقصائي للواقع المُعاش وعزله في صناديق اللاوعي , لازال من الآليات الفعالة والمؤثرة والتي ترسم خارطة حياتنا السياسية والاجتماعية عموما.

فعلاقتنا بالواقع الذي نعيشه علاقة انقطاع وتثاقل وتوجع وضجر وتبرم, فنحن لا ننفتح على محيطنا بإيجابية وإبداعية وإرادة واضحة التعبير وإيمان بالحياة الأفضل, بل ندور في ذات الدوامة, بين مطر وجفاف وصيد وغزو, فما عرفنا التفاعل الإبداعي مع محيطنا, وما تشكلت عندنا مكونات الجوهر الوطني والإحساس بالانتماء إلى الأرض التي نسميها وطن, فلم نفكر آنذاك في العمارة والاستقرار

الفرد منا لا يواجه واقعه ولا يبتكر الوسائل الكفيلة بتغييره ، وإنما ينأى عنه ويخرج منه إلى آليات الخيال والحلم

إن وعي ملامح شخصيتنا وفهم الآليات التي تدفعنا للتفاعل مع بعضنا وواقعنا والآخر من حولنا ، يساهم في رسم طريقنا في الزمن المعاصر

عندما جاء محمد(ص) برسالته وواجه الواقع القائم وأقر مؤمنا بتغييره، لاقى صعوبات جمة أخذت منه أكثر من ثلاثة عشر سنة ، لكي يحول أنظارنا من الخيال وتجاهل المحيط الذي نحن فيه إلى الوقوف إزاءه ونقده ومراجعته وتغييره

الموقف الإقصائي للواقع المُعاش وعزله في صناديق اللاوعي ، لازال من الآليات الفعالة والمؤثرة والتي ترسم خارطة حياتنا السياسية والاجتماعية عموما

نحن لا ننفتح على محيطنا بإيجابية وإبداعية وإرادة واضحة التعبير وإيمان بالحياة الأفضل، بل ندور

لغياب تلك القيمة. إن ضعف الإحساس بالوطنية جزء مؤثر في شخصيتنا وله نتائجه السلبية التي نحصدها ,هذا أيضا يفسر بعض الإندفاعات التخريبية لدينا تحت آلية أنا أصون ملكي وأدمر ملك الآخرين.

وهذا واضح في شخصية إمرؤ القيس, فهو الملك الأمير والشاعر الذي يريد أن يدخل التأريخ بشعره ومغامراته ومواقفه الصعبة التي تنتهي إلى تراجيديا الدمار والخراب , حتى قضت به إلى الموت بلباس من الذهب معفر بالسم.

كما أن المعلقة تشير إلى مفردات واضحة في شخصيتنا تجسدها شخصية هذا الشاعر الأمير الذي هو سيد قومه ووارث أجداده والثائر لأبيه, وكأنه يريد أن يقول بأن ما نقوم به ما هو إلا نشاطات ترويحية أو تنفيسية لأحلام وتطلعات محبطة ومتكدسة في صدورنا لا نستطيع الارتقاء إلى تنفيذها , فعلينا أن نسكر بلذة الإمساك بها في خيالنا وسلوكنا الخداع.

هذه رحلة مقتضبة في معلقة إمرؤ القيس , أرجو أن أكون قد وفقت من خلالها بمساهمة متواضعة لفهم آليات شخصيتنا التي تتسبب في تحقيق سلوكنا الفردي والجماعي.

في ذات الدوامة، بين مطر وجفاف وصيد وغزو

إن ضعف الإحساس بالوطنية جزء مؤثر في شخصيتنا وله نتائجه السلبية التي نحصدها ،هذا أيضا يفسر بعض الإندفاعات التخريبية لدينا تحت آلية أنا أصون ملكي وأدمر ملك الآخرين

*** *** ***

دليل اصدارات الشبكة

دليل المستجدات

www.arabpsynet.com/Documents/DocIndexAr.htm

دليل المجلة العربية للعلوم النفسية

www.arabpsynet.com/apn.journal/index-apn.htm

دليل سلسلة الكتاب الإلكتروني

www.arabpsynet.com/apneBooks/index.eBooks.htm

دليل الأبحاث والدراسات في العلوم النفسية

www.arabpsynet.com/Archives/OP/IndexPAar.htm

دليل المعجم النفسي العربي

www.arabpsynet.com/HomePage/DictAr3.htm

دليل يوميات الانسان و التطور

(بروفسور يحيى الرخاوي)

www.arabpsynet.com/Rakhawy/IndexRakAr.htm